دلالة قول الله:

قد سمع الله قول التي تجادلك ..

دلالة قول الله

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا..

إنَّ الدلالات التي تُؤخَذُ من قول الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ... ﴾

ذات تأثير بالغٍ في خشية القلب، واستقامة النفس.

وهي تستحضر أن الله حاضرٌ في كُلِّ شأنٍ، لا يغيب.

قد سمع قول التي تجادلُ رسولَ الله ﷺ في زوجها، وتشتكي إلى الله. سمِعَهَا، واستجاب لها، وأرسل أمينَ السماء؛ يُهَدِّئُ من رَوْعِها، بما أوحى الله من آياتٍ فيها حُكم الله.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾.[1]

ليعلم الناسُ ـ جميعاً ـ أن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأن ما يقضي الله به قائمٌ على علمٍ وحِكمة.

وأنَّ مَا هُم عليه معلومٌ ومشهود.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾.[2]

خُذْ مثلاً آخرَ من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مَسبوقاً بسبب النزول،

---

(1) المائدة: ٥٠.

(2) يونس: ٦١.

كما رُوِيَ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

دخل أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ بيت المِدْرَاس [1] فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجلٍ منهم يُقال له "فِنْحَاص" وكان من علمائهم وأحبارِهم، ومعه حَبْرٌ يُقالُ له "أشيع"

فقال له أبو بكر: وَيْحَكَ يا "فنحاص" اتقِّ الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أنَّ محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحقِّ من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من حاجةٍ من فقرٍ، وإنه إلينا لفقير.

ما نتضرَّعُ إليه كما يتضرَّعُ إلينا، وإنا عنه لأغنياء.

ولو كان عنَّا غنياً ما استقرضَ منَّا، كما يزعم صاحبُكم.

ينهاكُم عن الرِّبا، ويعطينا ! ولو كان غنيًّا ما أعطانا الرِّبَا.

فغضب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فضرب وَجْهَ "فنحاص" ضرباً شديداً.

وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد، لضربتُ عُنقك، يا عدو الله، فاكذبونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين.

فذهب "فنحاصُ" إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أبصر ما صنع بي صاحبُك؟

فقال رسول الله ﷺ: « ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ يا أبا بكر؟ »

(1) هو البيت الذي يُدرس فيه كتابُهم.

فقال: يا رسول الله، إن عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقيرٌ، وأنهم أغنياء. فلمّا قال ذلك غَضِبْتُ لله مِمَّا قال، فضربتُ وجهه.

فَجَحَدَ "فنحاصُ" ذلك، وقال: ما قُلْتُ ذلك.

فأنزل الله فيما قال "فنحاصُ":

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾.[1]

حَدَثٌ وقعَ في الأرض، اهتزتْ له السماء.

لم يتدخل الرَّسُول ﷺ لتصديق أبي بكر ـ وهو يعلم أنه صادق ـ وإنما جاء تصديقُ أبي بكر وردُّ فنحاصٍ من عند الله.

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ .... ﴾

قول الله هنا: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ للذين قالوا ما ذُكر، وإعلامهم بأن الله عَلِمَهُ وأحصاه.

﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾

هذا قولُهم في الله، وهذه معاملتهم رُسُلِ الله. وسيجزيهم الله على ذلك شرَّ الجزاء.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا

---

(1) آل عمران: ١٨١.

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾.[1]

يُقالُ لهم ذلك؛ تقريعاً وتوبيخاً، وتحقيراً وتصغيراً؛ جزاءً وفاقاً.

إنَّ دعوتَهم إلى قَبول الحق زادتهم طُغياناً وكُفراً.

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾.[2]

زعموا أنَّ الله عَهِدَ إليهم في كُتبهم أن لا يؤمنوا لرسولٍ حتى يكونَ من معجزاته أنَّ مَن تصدَّقَ بصدقةٍ من أُمَّتِهِ، فَتُقُبِّلَتْ منه، أن تنزل نارٌ من السماء تأكلها.

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسوله: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.[3]

﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى ﴾ بالحُجَجِ والبراهين ﴿ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ ﴾ أي: وبنارٍ تأكل القَرابين المُتقَبَّلَة ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي: فَلِمَ قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة، وقتلتموهم ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أنكم تتبعون الحقَّ، وتنقادُون للرسل ؟!

ثم قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُسَلِّياً نبيَّهُ محمداً ﷺ:

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ

(1) آل عمران: ١٨١، ١٨٢.

(2) المائدة: ٦٤.

(3) آل عمران: ١٨٣.

وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾.[1]

أي: لا يوهنك تكذيبُ هؤلاء لكَ؛ فلكَ أسوةٌ بمَن قبلك من الرسل، الذين كُذِّبوا مع ما جاءوا به من البيِّنات والزُّبُرِ والكتاب المنير.

هكذا نرى التواصلَ بين الرَّسُول وخَبَرِ السماء.

تواصلٌ يُرَى في واقعٍ، ويُقرأُ في آيات.

إعجازٌ ما بعده إعجاز. هو خيرٌ وأبقى مما يطلبه القوم من معجزات.

إنهم قد طلبوا المعجزةَ ناراً تنزِلُ من السماء، فتأكلُ ما قُدِّمَ من قُربان، ولن تبقى ساعة من نهار.

ولكن الله جعلها نوراً، تبقى ما بَقِيَ الليلُ والنهار.

ولم تكن معجزةُ القرآن معجزةً واحدةً، بل معجزات، والقرآن يتنزَّلُ به جبريلُ على قلبِ الرَّسُول في أَيَّة لحظةٍ من ليل أو نهار، وإنْ نامتْ عَيْنُ الرَّسُول، فالعين نائمةٌ، والقلب يقظانٌ.

فلم تُتْلَ آيةٌ على الناس من القرآن قبل أن تُتْلَى على قلب الرَّسُول.

ومن قلبه ﷺ كانت التلاوة على الناس نُوراً، وكان الرَّسُول ﷺ بالقرآن سراجاً منيراً.

يسمعون القرآنَ من رسول الله ﷺ تلاوةً وذِكراً.

ويرونه في شَخْصِهِ خُلُقاً وعَمَلاً.

فالقرآنُ الكريم لم يصل إلينا إلا مُرُوراً بقلبه ﷺ، ولم نَحْفَظْه إلاَّ من

(1) آل عمران: ١٨٤.

قراءته وحِفظه، ولم نعرف بيانَ فرائضه وشرائعه إلاّ من إقراره وقوله وعمله.

فلا فَصْلَ بين الرَّسُول ﷺ والقرآن..

ولا اتِّبَاعَ للقرآن بغيرِ اتِّباعِ الرَّسُول.

فإن القرآن قد أُنزل وحُفظ ليُعمل به.

ولا نعرف كيف نعمل بغير بيانِ مَنْ أُنزِل عليه.

وقد كانت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ ذاتَ معرفةٍ بالرَّسُول، وفِقْهٍ بالقرآنِ، حيث قالت: « كَانَ خُلُقُه القُرآن ».[1]

وكان الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ إماماً من أئمة المسلمين، حيث قال: « كُلُّ ما حَكَمَ به رسولُ الله ﷺ فهو مِمَّا فَهِمَهُ من القرآن. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[4]، ولهذا قال الرَّسُول ﷺ: « ألا إني أُوتيتُ القُرآنَ ومثله معه »[5] يعني: السُّنَّة »[6]

والسُّنَّةُ ـ أيضاً ـ تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، إلاّ أنها لا

(1) أحمد: ٦/٩١، رقم ٢٤٦٤٥. وهو حديث صحيح.

(2) النساء: ١٠٥.

(3) النحل: ٦٤.

(4) النحل: ٤٤.

(5) أحمد: ٤/١٣٠، رقم ١٧٢١٣، وهو صحيح الإسناد، ورجاله ثقات.

(6) تفسير ابن كثير: ١/٤.

تُتْلَى كما يُتْلَى القرآن.

فحُفِظَ ـ بذلك ـ القرآنُ حِفْظَان:

= حِفْظٌ لكلماته وآياته.

= وحِفْظٌ لبيانه وسبيل اتِّباعه.

فَتَحَقَّقَ بذلك وعدُ الله لرسوله ﷺ حيث قال:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ ﴾.[1]

وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾.[2]

وتحقّقَت الكفالة المطلقة بحِفْظِ الذِّكر، بلاغاً للناس، وإعذاراً وإنذاراً ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾.[3]

* * *

(1) القيامة: ١٧.

(2) القيامة: ١٩.

(3) الحجر: ٩.